الاتّجاه القومي في الشّعر المهجري

د.منيرة ذياب عبد الكريم عودة

تقديم:

هو قضية تهم الكثير من الناس وهي القضية البارزة في شعر شعراء المهجرألا وهي "الاتّجاه القومي في الشعر المهجري".الموضوعات والقضايا القومية التي تناولها الشعر المهجري كثيرة متعددة منها: واقع الأمة: في الفترات التي عاصرها شعراء المهجر من خلال مفاصل تاريخية.وخاضوا في مجالات كثيرة من فنون الشعر التي حملت الصوت القومي المهجري . كالشعر الغنائي - والشعر الحر - الشعر القصصي - الشعر التمثيلي.وقد حمل الكثير من الخصائص الفنية التي تميزبها هذا الأدب .وبخاصة الاتّجاه القومي في شعر المهجر.

الأدب المهجري

لم يكن الشعر في العصر الحديث بمعزل عن القضايا الكبرى التي يعيشها الوطن العربي ولا عن الأحداث التي أثرت في حاضر هذه الأمة سلباً وايجاباً. والشعر المهجري - على الرغم من أنه نما ونبت في تربة غير عربية إلا أنه واكب أحداث الوطن. والدافع إلى هذه الدراسة أنه لم يعثر على كتاب مستقل كرس لتناول هذا الاتّجاه في الشعر المهجري في حدود اطلاعي.

بل كان التناول له في سياق استعراض قضاياه ..ومما زادني رغبة في تخصيص هذه الدراسة وحصرها في النزعة القومية لشعراء المهجر؛ أنهم لم ينفصلوا عن بلدانهم رغم المسافات الشاسعة، ورغم الحياة الجديدة .هذا بالإضافة إلى أنه لم تمارس عليهم ضغوط تدفعهم إلى الخوض في هذا الاتجاه،مما يجعل الصدق بارزاً في نزعتهم القومية .التي أصبحت شعارا يلهج به شعراء المهجر الذين أصروا في شعرهم أن تبقى قلوبهم معلقة بأوطانهم، وأنهم غرباء في الجسد فقط وأن النزعة القومية راسخة فيهم رسوخ الجبال .

يقول إيليا أبو ماضي

أيها السائل عني من أنا

أنا كالشمس إلى الشرق انتسابي

إذا كان للشعرأعمار كأعمار الناس ونبض خافق بين الموت والحياة . فإن شعراء المهجر كانوا نقطة انطلاقة لأدب قدم للعالم الكثير. جمع أبناء الوطن تحت راية خط عليها (القومية والحرية) .شعراء ما أبعدتهم المسافات عن وطنهم إلا جسداً . أما الروح فبقيت حيث ولدت إن كان الزمان قد طوى صفحات بعضهم ولم يصل نور الشمس إلى بعضهم؛ فذلك لا لكونهم غير موجودين بل ربما لأنهم درر تسكن أعماق المحيط .ونجوم ما زالت ترسل بنورها الذي لم يصلنا بعد .هو أدب عربي البذار حملته الرياح .إلى مشاتل العالم الجديد فزكا ونما في كل تربة، وأينع تحت كل سماء،طبعت شمس الغرب ألوانها على أوراقه أما لبه فيحيا على إشعاع الشرق وقلبه .يختلج بنسمات الصحراء. تشابهت على منابته المتفرقة ظروف الحياة وطبائع المناخ فتشابهت أثماره شكلاً وتشاركت في الطعم.أدب المهاجرين رسالة عربية لم يلصق بها الغرب إلا طابع البريد عبرت البحار إلى قراء العربية فسارع المتشوقون إلى فض الرسالة؛ لكي يستمتعوا بما كتبه لهم الأحباب في الغيّب .

إن يختلف ماء الحياة فماؤنا

عذب تحدر من غمام واحد

أو يختلف نسب يؤلف بيننا

أدب أقمناه مقام الوالد

الأدب المهجري
ظروف نشأته وموطنه

ولد الأدب المهجري على أرض الأمريكيتين الشمالية والجنوبية. ولم تكن هجرة تلك الثلة من أدباء المهجر إلى بلاد أمريكا عرضية

أو بدافع الاستطلاع ، وإنما كان هناك جملة من الأسباب والعوامل التي دفعت بهم إلى ترك أوطانهم وذويهم عديدة.ولم يكن ضيق ذات اليد بعيداً عن الأسباب التي دفعتهم إلى البحث عن مصدر رزق يحقق لهم حياة وعيشاً كريمين .كما أن البحث عن حياة جديدة تسودها الحرية والأمن مطمح الإنسان منذ أن خلق على هذه البسيطة ولعل أبو ماضي خير من لخص أبرز دواعي الهجرة والاغتراب .

لبنان لا تعذل بنيك إذا همو
ركبوا إلى العلياء كل سفين
لم يهجروك ملالة لكنهم
خلقوا لصيد اللؤلؤ المكنون

لقد ظل الجسر الذي يربط الشرق بالغرب زماً طويلاً معبراً للبضائع المادية، والقيم الفكرية التي كانت تتجه من الغرب إلى الشرق .أما الآن فقد ازدوج الجسر فأصبح معبراً من الشرق إلى الغرب. أما أدباء أمريكيا الجنوبية فقد تجلت في أدبهم النزعة القومية والوطنية نحو العروبة والعرب لصد هجمة القومية الطورانية التركية المعادية لكل ما هو عربي .

لذلك نرى أن رسالة الأدب المهجري أشبه بشجرة متداخلة الفروع لكن جذرها واحد. ففيها : الذاتية التي لخصت آراءهم وآمالهم ،ومعاناتهم وما جاش في صدورهم من حنين وشوق وخوف وأمل وآلام غربة. وفيها :النزعة القومية "الجماعية " التي عبرت عن قوة الانتماء وصدقه إلى أمتهم وأوطانهم وتاريخهم وحضارتهم والالتصاق بقضايا الأمة المعاصرة .النزعة الإنسانية : التي عبرت عن إخاء البشرية وتسامحها ، وربط المحبة والألفة بين بني البشر إضافة إلى. النزعة الروحية والعقلية التي عبرت عن تأملاتهم وآرائهم في الكون والطبيعة والحياة وما كان يقع في نفوسهم وعقولهم من اضطراب وقلق، ورغبة في تفسير حركة الكون والحياة.

رسالة الأدب المهجري

ما الذي أسداه "قدمه " من خير إلى الحياة والإنسانية ؟يقول ميخائيل نعيمة :" إن الشعر المهجري أدى رسالته للشرق كاملة فكل ما جاء بعده فهو نور على نور".

فإن كانت رسالة الأدب خلق الشخصية التي تبني نفسها لتتحررمن قيود التبعية ، وتسموإلى عالم قريب من المثالية تظلله قطوف السعادة التي يلتقط الأجيال حباتها بعد غسلها من أدران الحياة، ويقدمها مع كل تجارب الماضي لتكون خالصة لجيل يكمل هذه الرسالة .فهو الأدب السامي الحري بإن يراعي الإنسانية بكل معانيه،.فهل اضطلع الأدباء المهجريون بواحدة من الرسالات الأدبية القائمة على تجميل الحياة ،وإنارة العقول ،وإنكار الذات ،والتجند لخدمة المثل العليا ،وانتشال الأمة. إن كانت كذلك فهي بحق رسالة تستحق القراءة والترجمة إلى أفعال لأنها ؛ تعكس صوره أمة وتعمل لحل مشاكل شعب ؟أدباء المهجر جميعاً دون استثناء أدوا رسالة الأدب إلى المجتمع ، ورسالة الأدب إلى اللغة العربية .

الجماعات الأدبية العربية في المهجر.

من أشهر الجماعات الأدبية التي أنشأها أدباء المهجر وأهمها أثراً وتوجيهاً للحركة الأدبية في المهجر.- الرابطة القلمية - : نسبة إلى القلم وقد أنشئت في نيويورك ٣٠/ نيسان ١٩٢٠م . أسسها عبد المسيح حداد مؤلف كتاب حكايات المهجر. ومن أبرز أنصارها والداعين إليها جبران خليل جبران (عميد أدباء المهجر) .ومنهم "رشيد أيوب" " ندرة حداد " "ميخائيل نعيمة" .كتاب (الغربال) لميخائيل يمثل أفكار الرابطة القلمية ، ويمثل روح التجديد التي تدفع أدباء المهجر إلى الميدان الأدبي .

العصبة الأندلسية

قامت في المهجر الأمريكي الجنوبي (البرازيل) مؤسسها ميشال معلوف. ثم خلفه الشاعر القروي.كان من أهداف العصبة : رفع شأن الأدب العربي في البرازيل وإحياء التراث العربي الأندلسي. من شعراء العصبة الأندلسية : الشاعر القروي وإلياس فرحات ومن كتاب العصبة الأندلسية :نظير زيتون

أدباؤنا في البرازيل

ولد الأدب العربي في الجنوب . كما ولد في الشمال هزيلاً ضئيلاً

لسوء غذائه المادي والمعنوي فاستفحلت فوضى الأقلام وتحولت الصحافة إلى مسرح تمثل عليه أدوار الممالأة والمدح ،أو التشنيع والقدح تبعاً لما تمليه المصالح الشخصية .

تأسست في سان باولو أول ندوة أدبية اسمها "رواق المعري". ١٩٢٧م أصدر موسى كريم مجلة الشرق، وجعلها ميداناً لأقلام الكتاب والشعراء.ووجدوا في ميشال المعلوف رعاية واستعداداً للعمل والبذل .فأسسوا "العصبة الأندلسية" برئاسته ، وأصدروا في العام التالي مجلة العصبة الأندلسية. وقد حددوا مبادئ العصبة هكذا :"تعزيز الأدب العربي و تآخي الأدباء، و رفع مستوى العقلية العربية، و مكافحة التعصب إضافة إلى نقض التقاليد التي تنافي روح العصر لم يحفظوا لها نهجاً معلوماً في الأدب ؛ لأن أركانها أجمعوا على النضال في سبيل الأدب من حيث هو ... فن وجمال دونما نظر إلى إطارأو مصدر .

فلا اغتراف من معين ينبوع منشود ولا تمسك من فروع الشعر محدد. ومن أميز ما اتسم به أدب العصبة وشعر شعرائها أنهم ترسموا أساليب الفصحى وتقيدوا بأحكامها ما وجدوا إلى ذلك سبيلا. كما أنهم جلوا في مضمار التجديد صامدين بأدبهم دون فوضى التجديد " ."شفيق المعلوف"

النزعة التجديدية في الشعر المهجري

ليس المقصود بالتجديد الانسلاخ التام عن التراث الأدبي القديم من مضامين وأساليب ومنهج بل السعي من أجل استيعاب الشعر لقضايا معاصرة ، ومظاهر تجديد في الشكل والفن .و مواكبتة للحركات والمدارس الأدبية الجديدة .مع المحافظة على جمال القديم . وهذا ما اتسم به الأدب المهجري .فعلى صعيد المضامين والموضوعات نجد الأصالة في المزج بين القديم والواقع . ولعل أبرز الموضوعات التي فيها جدة :التجديد الطامح إلى الكمال وبخصائص قوية بارزة في قالبه وفي مضمونه و أهدافه.

الطابع العاطفي "الحنين"

تلعب العاطفة في حياة الإنسان دوراً لا يمكن أن ننكره فهي تحرك كل مفاتيح الحياة . بدونها يكون الإنسان آلة لا تحس ولا تشعر .تسحق ما يأتي أمامها دون تمييز.والأدب المهجري يتمييز بطابع عاطفي يتجلى في أدبهم كما النجم في السماء . رقة في العاطفة ما بعدها رقة. تتجلى في الشوق والحنين الصادقين اللذان ينبعثان من قلوب عاشت الغربة بكل أبعادها،فكان شعرهم مرآة صادقة

وقال فرحات :

دار العروبة، دار الحب والغزل

هاجرت منك وقلبي فيك لم يزل.

هلا منت بلقيا استرد بها فجر

الشباب فشمس العمر في الطفل

وتكون صورة الحنين أكثر صدقاً وإيلاماً والتصاقاً بالقلوب. حين يتمنى نسيب عريضة أن يعودوا به إلى حمص جثة محمولة على الأكتاف ؛ ليدفن في أرضها فهي أرحم بجنينها من باقي الأمم ذاك الثرى الندي تقبله كل صباح شمس الوطن.

يا دهر قد طال البعاد عن الوطن

هل عودة ترجى وقد فات الضعن

عد بي إلى حمص ولو حشو الكفن

واجعل ضريحي من حجارة سود

لا بد للناظر في هذا الشعر من أن يلمس ما للعاطفة من أثر على الشعراء .وخاصة أولئك الذين احتضن شوقهم تلال غير تلالهم، وداست أقدامهم أرضاً غير أرضهم . فكانت لكل خطوة ذكرى، ولكل خطرة في خيالهم ذكرى. تحثهم لإخراج مكنون عوطفهم . التي ربما لم يتح لها - وإن كانت موجودة - الظهورعلى أرض الوطن وبين الأهل.

يا ثلج قد هيجت أشجاني

ذكرتني أهلي بلبنان

يا ثلج أذكرتني أمي

أيام تمضي الليل في همي

ويلخص جورج صيدح حال المهاجرين وقلوبهم . ويلخص عذاباتهم فالحنين إلى الأم كان نبع أدب حافل بالعاطفة المتقدة ونستطيع القول بأن الحنين إلى الأم وتر جديد شده شعراؤنا المغتربون إلى قيثارة الشعر العربي . فاتسم به شعرهم وعرف به سائر الشعر المهجري .على أن الحنين إلى الوطن الأم هو الذي

استغرق كل مشاعر الحنين وأنماطها..

منذ افترقنا نعيم العيش فارقني
والهم والغم أشكال وألوان
مشى الزمان على الأحلام فاندثرت
يا ليت لم تعقب الأزمان أزمان
عهدالشباب وعهد الشام إن مضيا
فكل ما أعطت الأيام حرمان

الرسالة الاجتماعية والإنسانية

حمل أدباء المهجر لواء الواقعية الاجتماعية فعالجوا عيوب المجتمع ونقائصه . وأشاعوا الحب والتفاؤل بين الناس واستهدفوا خلق مجتمع أفضل ..

يقول إلياس فرحات :

أثير على التعصب نار حرب
يطير على اللحى منها شرار
قذفت بها قلانسهم فطارت
ولو خفت مآثمهم لطاروا

وقد حفل الشعر المهجري بألوان من النقد الاجتماعي . حيث أن المجتمع حفل بكثير مما يشوه نقاءه. فقد امتزج إصلاحهم الاجتماعي ونظرتهم للواقع بالطابع الإنساني على اعتبار أن الإنسان هو ابن المجتمع ومصلحه ،ومصدر خيره وشره فدعوا إلى المساواة ونبذ الكبر والتعالي حتى تسود المحبة والوفاق .ولعل قصيدة " الطين "لإيليا أبي ماضي" من أروع القصائد التي تنقم على الغرور، وتسخر من الكبرياء وتندد بالأنانية وتهتف بالمساواة في فلسفة جميلة تستوحي الطبيعة وتعانقها

يا أخي لا تمل بوجهك عني
ما أنا فحمة ولا أنت فرقد
لا يكن قلبك للخصام مأوى
إن قلبي للحب أصبح معبد
أنا أولى بالحب منك وأحرى
من كساء يبلى ومال ينفد

النّزعة التأمّلية

يشهد أكثر الباحثين في الأدب أن شعراء المهجرهم فرسان الشعر التأملي . ولعل أكبر دليل يدعم هذه الشهادة أننا نجد قصائد برمتها تطرح قضايا تأملية .وتخوض في تفاصيلها كقصيدة الطلاسم لإيليا أبي ماضي ،هذا الطابع التأملي هو نتيجة لتأملهم الطويل في الذات والنفس الإنسانية أو في الطبيعة وما وراء الطبيعة ،ونتيجة لما اعترى صدورهم من بلابل وشك وحيرة .ربما تكون وليدة معاناتهم الأولى في أوطانهم ومعاناتهم الثانية في المهجر ، وحياة الإفلاس الروحي في تلك البلاد..

.يقول أبو ماضي في قصيدة الطلاسم :

جئت لا أعلم من أين ولكني أتيت
ولقد أبصرت قدامي طريقاً فمشيت
وسأبقى ماشياً إن شئت هذا أم أبيت
كيف جئت ؟ كيف أبصرت طريقي ؟
لست أدري

وأحياناً كانت تعتريهم حالة يأس وضجرمن الحياة فيندبون حظهم كما فعل من قبلهم أبو العلاء المعري ـ حينما حمل والده مسؤولية بعثه للحياة .(هذا ما جناه أبي علي وما جنيت على أحد) إن الحديث عن الشعر التاملي عند جماعات المهجر طويل لا يتسع له المقام ، ولكن يبقى يسجله مفتوحاً لتخوض فيه الدراسات والأبحاث.

الاتجاه القومي في الشعرالمهجري

الوطن هو الأم التي لا يساوم عليها.فإذا كان الشعر ترجماناً عما في النفس ، وتعبيراً عما يجيش في الصدر والقلب فإن الشعر يشهد بأن الانتماء للعروبة صادق كل الصدق عند شعراء المهجر ولا نستطيع أن نحكم على شاعر مثل إلياس فرات بالمبالغة ، أو الكذب حين يقول:

ولو أوصي بكره العرب دين
لكنت إذاًإمام الملحدينا

ولا نستطيع اتهام الشاعر القروي بالزيف أو المصانعة حين يقول :

هبوني عيداً يجعل العرب أمة
وسيروا بجثماني على دين برهم
سلام على كفر يوحد بيننا
وأهلاً وسهلاً بعده بجهنم

هذه النزعة القومية التي رسخت عقيدة صافية في قلوبهم، ولم تكن وليدة نظريات ولا اتجاهات ولا برامج سياسية إنما هي نابعة من شعور فطري يحيا في قلوب الناس حينما يبحثون عن هويتهم ،ولم تستطع المجتمعات الجديدة أن تسرق منهم هذا الحس القومي ، أو تخمد جذوته.لعل إيليا أبا ماضي خيرمن يلخص هذا الحس المتنامي لدى شعراء المهجر الذين أعلنوها ـ صراعاً ـ أن انتسابهم للشرق وليس لبلدان المهجر

إن هذا الحس والشعور القومي المتدفق جعل الطابع القومي في شعر أهل المهجر علامة بارزة في أدبهم . وقضية كبرى تستحق البحث و الدراسة. وهذا ما دفع إلى تتبع القضايا،والموضوعات التي نبعت من هذا الشعور . وذلك لأمرين أساسيين: أولهما: صدق الشعور والانتماء. وثانيهما: الواجب الأدبي المترتب على أبناء الأمة تجاه أمتهم - بخاصة - حين تبتلى بالنكبات، وبلين بعد قوة، وتذل بعد عزة ، وتعصف بها ريح التفرقة والتآمر العروبة هي دين ومنهج أدباء المهجر قبل أي دين، وعقيدتهم الوطنية فوق كل مستوى النزعات العنصرية.

ولم لم تكوني فرنجية
لكنت سعادي قبل سعاد
ولكنني عربي المنى
عربي الهوى عربي الفؤاد
لعمرك يا "مود "لولا ذووك
لما ميز الحب بين العباد
فإني حرام علي هواك
وفي وطني صيحة للجهاد

قضية فلسطين

تمثل قضية فلسطين جرحاً لا يندمل في وجدان كل عربي.وشعراء المهجر بحكم عروبتهم ونزعتهم الإنسانية وقفوا مع أبناء فلسطين في نكبتهم من ألفها إلى يائها .فشخصوا الداء أولاً ثم وضعوا الدواء وأشاروا بأصابع الاتهام إلى كل الأطراف التي حاكت خيوط المؤامرة .فها هو الشاعرالقروي يندد بوعد بلفورالذي فاض كرماً عندما أهدى اليهود فلسطين وطناً لهم .

الحق منك ومن وعودك أكبر
فاحسب حساب الحق يا متجبر
تعد الوعود وتقتضي انجازها
مهج العباد خسئت يا مستعمر
لو كنت من أهل المكارم لم تكن
من جيب غيرك محسناً يا بلفر

فقد لهجت بالشعرألسنتهم ووصل صدى حبهم إلى ربوع الوطن حتى لتجد الكلمة أقوى من رصاصهم . فما أبدع ما قال نصر سمعان :

يا فلسطين قدستك الضحايا
وكساك الخلود أسنى بروده
أنت في معزف الحياة نشيد
لا تمل الحياة من ترديده

ويقول إيليا أبو ماضي :

ديار السلام وأرض الهنا
يشق على الكل أن تحزنا
فخطب فلسطين خطب العلا
وما كان رزء العلا هينا

حقاً لقد أصبحت مأساة فلسطين مأتماً في أدب شعراء المهجر لا يساويه مأتم وهلع القروي لنكبة فلسطين ولمصيراللاجئين هلعاً ألهاه عن كل مصيبة ،فعزف لحناً حزيناً باكياً على أوتار الحياة . نشدوه في خلواتنا وما أكثرها ...

كفى الميت منا أن يحس له فقد
أبعد هلاك الجمع يستفقد الفرد؟
أبعد فلسطين يناح على فتى
وهل بقيت في مقلة دمعة بعد؟
بكائي على المليون أنضبت دمعي
فما أنا إلا النار والحجر الصلد
ألا دمعة لاجئ أستمدها
فأبكيه بالبحر الذي جزره مد؟

تمجيد النضال العربي ورجاله

أمام الواقع المتردي الذي يغرق فيه الوطن العربي، وفي مقابل الإنكسارات وما جلبته من عار وهوان ، كانت هناك إضاءات مشرقة ومضرجة بدماء الأحرار والأشراف الذين أبوا لأمتهم هذا الواقع وهذا ما اتحف صدور شعراء المهجر وبخاصة عندما يسمعون عن ثورة انطلقت، وعن أبطال قضوا نحبهم في ساحة الشرف؛ ليعيدوا لأمتهم عزتها وكرامتها التي اندثرت تحت وطأة الأنانية والجري وراء المصالح الشخصية ويبعدوا العدوان بكل ما أوتوا من قوة .وقد تجمع لهم سفر من البطولة والرجوله خلدوها بأشعارهم؛ لذلك نرى كثرة القصائد التي تمجد أسود الحمى وجهادهم المكلل بالنصر.لقد أصبحت فلسفة الشهادة والشهداء أكبر معين ينهل منه شعراء المهجر .ويرون فيه بارقة أمل لهذه الأمة المنكوبة - الغائبة عن الوعي لكثرة المصائب المتلاحقة عليها نتيجة بعدها عن الإسلام ، والضعف الذي دب في جسدها الواهي؛ حين اتخذت من الأنانية منهجاً تسيرعليه - ولم تكن نبرة الحزن هي الطاغية عندما يرثون الشهداء أبطال الثورة . بل جعلوهم نبراساً للتضحية والقيادة والأمل المرجو بعد تهاون القيادات السياسية.لقد رأى شعراء المهجرفي

الثورات التي اندلعت وفي رجالها الذين أوقدوها واقعاً للتعبيرعن الأمجاد الفردية بضميرالأمة كلها . وجعلهم يرفعون رؤوسهم ويفخرون بأمجاد الأمة وتلهج ألسنتهم بضميرالجمع ، ورفع مواقف البطولة الفردية إلى إنجازات بطولية تمثل الأمة كلها . فالشاعر جورج صيدح يفخر باسم الأمة :

كتبت آية الجهاد علينا
وعلى الله والسيوف البقية

وذهب شعراء المهجر إلى أبعد من الحاضر وتمجيده . فقد أبحروا في عالم الماضي ماضي الأمة في فترات العزة . فوجدوا فيه ملاحم لا تنتهي من الأمجاد والبطولات . ونبع لا ينضب من سير العظماء من العصور المختلفة .وكأني بهم يريدون أن يبنوا جسوراً بين الماضي والحاضر وينثروا هذه الأمجاد . حتى تكون درساً في إخراج الأمة من واقعها المتردي . فنسمع الشاعرالقروي يشدوا بألحان عذبة للفخر بأبيات ما زال صداها في أعماقنا

نحن قوم أنجبتنا أمة ما برحت
تنجب الأبطال من قبل ثمود
زرعوا الأرض سيوفاً وقنا
ثم روها بإحسان وجود
وحدتنا الخطوب حتى غدونا
رغم الخطوب كالبنيان

الدين الإسلامي ليس دين تفرقة ، دين يرقى بالأمة ، ويرفع نير الذل ويدفعها نحو الحرية والمجد فإلياس فرحات يعتز بالإسلام الذي يرى فيه نهجاً للخلاص من التعصب المذهبي . فقد بزغ هذا النور من بقعة طاهرة لينتشل الأمة من غياهب الجهل إلى عالم النور والعدل .فهو يرفع راية الأمة قوة وعلماً،ويكره التعصب المذهبي وينفرمن شعوذات الدين :

وطني حببتك سيداً ومسودا
وحببت أهلك عوسجاً وورودا
أبغي لهم رتب العلا ولو أنهم
تخذوا على جسدي الطريق صعودا

الرسالة اللغوية

هي رسالة التجديد والتبسيط والإبداع نشرها المهجريون في زمن كان الأداء فيه تقليداً ومسخاً وتعقيداً . بدأت بالريحاني وجبران ثم انضم إليهما نعيمة. وأصبح زعيم الحركة المهجرية في تحرير اللغة ونقلها من وهدة الجمود إلى حياة نشطة يعيش فيها الأدب بمقدار ما ينبض فيه من الأفكار والمعاني . لا بمقدار ما يرتديه من الأزياء اللغوية .

وما زال كتاب "الغربال" لنعيمة دستور المجددين والناقدين ولم يكتف أدباء المهجر بالنصيحة والإرشاد إلى نهضة لغوية بل طبقوا مذهبهم على إنتاجهم . وجاء نثرهم وشعرهم فيضاً من الروح على مسارب الحياة . وكان إيليا أبو ماضي أول المتحمسين لمذهب التجديد . وهو المذهب المخلوق له الملائم لأسلوبه السهل الممتنع .وجاء الريحاني بأسلوب الشعر المنثور فأقبل عليه الكثيرون من أدباء الوطن يقلدونه .قال يحيى :

هي أول من قال للموت لا
وأول من قال للحياة نعم
لها في الموت حياة وفي
الحياة المآثر الخالدات
مصر آية الزمان . ابنة فرعون .
معجزة الدهر . فتاة النيل

وبرز جبران بأسلوب باهر ليصبح مدرسة جديدة في البيان ؛ لما فيه من أخيلة وكنايات وألحان تعتلج بالنبض والحرارة والجمال فهو رائد التجديد الأول وأستاذه الأكبر. أعطى اللغة إمكانية جديدة التنسيق والبيان للتعبيرعن الجمال ورسم صوراً جديدة في كل موضوع عالجه ... جبران يخاطب الليل بغير ما ألفناه .والتجديد في أدب جبران وغيره من المهجريين ليس خيالياً إلا في أسلوب الأداء ، فالموضوع عندهم لا يخرج عن واقعية البيئة والعصر. والتعبير ليس إلا امتداد الواقع إلى أجواء أعلى وأفسح .

سرّ التفوق في أدب المهاجرين

تساءل الدكتور مندور في كتابه "الميزان الجديد" لماذا استطاع شعراء المهجر ما لم يستطعه غيرهم ؟ألأنهم من جنس يشهد له التاريخ بالنزوع إلى المغامرة والتوثب؟ أم أن غربتهم في أمريكيا وكفاحهم من أجل الحياة قد أرهف حسهم وقوى من نفوسهم ؟

لا شك أن عند العرب استعداداً نفسيّ للمغامرة والتوثب .هم جوّابو البوادي ورواد البحار منذ أقدم الأزمان .

فالطموح وحب الهجرة تراث انتقل من السلف إلى سكان لبنان بوجه خاص ، فهاجر نصف أهله إلى خارجه

... واللبناني من طلاب السعة والإثراء وليس لهجرته هدف غيرهما. الطموح الكامن في طبيعته عامل من عوامل نجاحه المادي في المهجر، ولكن لا يمكن أن يكون عاملاً من عوامل تفوقه الأدبي فقوافل المهاجرين من البلاد الأخرى حلّت حيث حلّ وكانت أكثر عدداً وأكمل عدة من القافلة العربية ولكنها لم تنتج أدباً جديداً تتمييز به كما أنتج المهاجرون العرب أما أن الكفاح من أجل الحياة يرهف حسهم ويقوي نفوسهم ، فلا ريب في ذلك لا شيء يخلق الشخصية كمجابهة المشاكل . وما أكثر ما يجابهه المغترب من مشاكل.

الأديب بالفطرة ليس بحاجة إلى عذاب الهجرة كي تتفتح موهبته بل إن حياة المهجر تبعده عن الجو الأدبي وتسلمه قلباً وقالباً إلى المحيط المادي القاسي حيث يعيش في قلق واضطراب،مهتاج الأعصاب ، همه الارتزاق في المرحلة الأولى ، والإثراء في المراحل التالية . صحيح أن الإنفعالات تنشط في الأديب حوافز الانتاج ، شريطة أن تكون انفعالات عاطفية ،لا إحساسات الجوع والتعب والحرمان والقلق والندم التي تصرفه عن كل تفكير وتدبيرما عدا التفكير بمحنته وتدبير الوسائل للنجاة منها .والقول" إن الأدب ينضج على نارالألم خرافة يجب محوها من الأذهان . يكفي الأديب أن ينفذ بوعيه وإحساسه إلى آلام الناس لكي يدركها ويحسن تصويرها ." فالسؤال ما زال قائما لماذا استطاع شعراء المهجر ما لم يستطعه غيرهم ؟

قيل إن غنى البلاد التي نزلها المهاجرون كان عاملاً ذا أثرفي خصب قرائحهم ونحن لا نرى صلة بين الغنى والأدب." فالبلاد التي أنجبت أكبر الأدباء العالميين لم تكن أغنى بلاد العالم ، وقد يستقيم العكس .إن أقل أجزاء سوريا والجزيرة العربية خصباً هي هضاب فلسطين وبوادي الحجاز وهي التي قدمت للبشر حضارة روحية أقوى وأعمق من تلك التي أنشاها سكان الأجزاء المترعة من سوريا ".وقالوا إنها الحرية الواسعة التي تنعم بها أمريكيا فتحت أمام المهاجرين آفاق المعرفة والانتاج الطليق . هذه نظرية صائبة من حيث المبدأ أما في الواقع فأثر الحرية في حياة الشعوب الأمريكية محدود حينا ومعدوم أحيانا. لأن الحرية لم تشرق على كل سماء العالم الجديد . إن بعض النظريات الصائبة لا تقبل التعميم فإذا عممت امتزج فيها الخطأ بالصواب إن البلد الذي لا يحترم فيه القانون لا تعيش فيه الحريات ، وأخصها حرية الأقلام.

وإلا كيف نفسرتواتر حوادث الاعتداء على الصحافيين في بلد راق كسان باولو في البرازيل ؟إن أدباءنا هناك ساروا على دين ملوكهم واحتكموا إلى المسدسات أكثر من مرة .الحرية الوحيدة التي يتمتع بها المهاجرون العرب في جميع أنحاء أمريكيا أن يسبوا حكومات بلادهم . وأن ينتقدوا رجال الدين ويحملوا على المستعمرين على شرط أن لا يتعرضوا بسوء للبلاد النازلين فيهاولا لأصدقائها (واليهود يعدون من أو في الأصدقاء)

فالمهاجرون الهاربون من الظلم والتعسف ، يفرحون إيما فرح بهذه الحرية ويستعملونها إلى أقصى حد انتقاماً من ظالميهم وتنفيساً لألمهم المكبوت، ويعتبرونها نعمة كبرى أن تدور ألسنتهم بما يشتهون ولا من يحاسبهم أو يعاقبهم .هذا القدر من الحرية لا يكفي غذاءً للأدب ، مهما تضخم خياله في عيون البعيدين عن أميركيا .إن المحيط الذي تعشش فيه غربان الصهيونية وتفرخ ، ليس بالمأوى المثالي لنسورالشعر. وجدير بالملاحظة أن مناخ الحرية في الأقطارالأميركية كان إلى عشرين عاماً مضت ، أي في أزهى عهود الأدب المهجري ، أسوأ مما هو عليه اليوم . إذن فالأدب المهجري لم يمش في ركاب الحرية يتسع باتساعها ويضيق بضيقها .قيل في جملة ما قيل إن تطعيم أدب الشرق بأدب الغرب ولد هذا المخلوق العجيب الذي نسميه أدب المهجر لا ننكر أن البيئة الأميريكية في الشمال فرضت طابعها على عادات المهاجرين العرب وعلى مظاهرهم الخارجية ، ولم نستثن الأدباء طبعاً .ولكن هؤلاء انقادوا إلى التيار وتطوروا كافراد اجتماعيين لا كأدباء منتجين . إن أدباء المهجر استمدوا إلهامهم بالدرجة الأولى من تأملاتهم في

الحياة ومن حسهم وتفكيرهم لا من حس غيرهم وتفكيره . معظم الأدباء في المهاجر يعيشون ملتصقين فكراً وعاطفة بأوطانهم الأصلية ، بعيدين بالروح عن البيئة الأميركية .لا يهتمون بأدبها وصحافتها وأخبارها مثل اهتمامهم بأدب الوطن العربي و صحافته وأخباره . فتراهم لا يتكلمون اللغة الأجنبية إلا مكرهين بدافع المصلحة التجارية في الأخذ والعطاء والبيع والشراء ،ويقبلون أيما إقبال على مطالعة ما يرشح إليهم من الصحف العربية .الشعرعندهم فيضان ينظمونه غراراً على غفلة من متاعب الكدح وراء الرزق . والعجمة واقفة لهم بالمرصاد . ما أن تيسر لهم البيئة حافزاً واحداً للإنتاج الأدبي حتى ترهقهم بالمثبطات العديدة .من هذه المثبطات: قلة الاجتماعات الأدبية والمساجلات الشعرية ، وندرة المناسبات التي يطلب فيها إليهم الكلام ومنها اختلاف مبادئهم الوطنية والتباين في ثقافتهم وتربيتهم وأذواقهم ونظرياتهم."ذلك التباين العامل على تشتيتهم في المهاجر كما عمل على تشتيت المقيمين في الوطن".

في ذلك يقول فرحات :

وكيف يعز الشعرفي دارغربة
كأن فصاح العرب فيها طماطم
وهل يستقيم النظم والنثر لامرىء
يبيع ويشري مرغما ويساوم
ومن ذا الذي يمسي على اللفظ حائماً
وفي صدره هم على القلب جاثم
علينا حقوق للعيال وما لنا
على الناس حق والدواهي دواهم
فوالله لولا خطرة ما لدفعها
سبيل لانستنا الهجاء اللوازم
ولولا هوى الأوطان وهو مقدس
لما جمعتنا باسمهن المواسم

ومن المثبطات مناوأة الجوالي العربية لهم، واستهتارها بأدبهم لأنها جاهلة، والمرء بطبيعته عدو لما جهله . وقد شرح الدكتور محمد حسين هيكل هذه النظرية في كتابه ثورة الأدب بقوله :

"في المهجر كما في الوطن العربي آفة استحكمت في أخلاق العرب وهي الميل إلى هدم كل رجل ذي قوة وموهبة لأسباب لا صلة لها بقوته وموهبته ، فإذا كبرالأديب في مجتمعه ثقل علينا ظله ... ".وأصاب بها كبد الحقيقة وكأنه تكلم بلسان المغتربين . وهذه الصورة الموجعة التي صورها القروي عن عقلية أبناء وطنه تبرز نقمته البارزة في قوله :

سل الساحبين ذيول النعم
بما سلخوا من جلود الغنم
ألم تبق فيكم بقية دم
ألا تشعرون بجمر الندم
ألا تبصرون شقاء الوطن ؟

وهذا جبران الذي وجد نفسه بين أبناء الجالية المغتربة دولاباً يسير يمنة بين دواليب تسير يساراً "يقول لهم :" أناأكرهكم يا بني أمي لأنكم تكرهون المجد والعظمة أنا أحتقركم لأنكم تحتقرون نفوسكم ".ويصل بنا المطاف من خلال السير في هذا البحث إلى نتيجة أن :

أن أدب المهاجرين ليس ثمرة انتقالهم إلى المحيط الأميركي لأنهم لم يجدوا فيه إلا القليل من الميسرات والكثير من المعسرات .ولا هو وليد أدب الغرب لأن أكثرهم لم يقرأه . بل أؤمن بأنهم لو تخلفوا في الوطن وعاشوا بين زملاء ينافسونهم في الإنشاء والنظم والخطابة ، والضاد تجري على ألسنتهم وترن في مسامعهم ليل نهار. لانتجوا أدباً لا يحمل الطابع المهجري ولكنه قد يفوق ما أنتجوه في المهجرالأميركي روعة وجمال وجزالة .

وحسبنا دليلاً على ذلك ما أنتجه الريحاني ونعيمة بعد خروجهما من ديار الهجرة . ولكن هذه النتيجة لا تعطينا الجواب عن سؤال الدكتور مندور" لم استطاع أدباء المهجرما لم يستطعه غيرهم ؟"شاء أن يجيب الدكتورعن هذا السؤال بنفسه فقال:

"السبب المهم هو أنهم قوم مثقفون قد أمعنوا النظر في الثقافات الغربية التي لا غنى عنها اليوم وعرفوا كيف يستفيدون منها بعد أن هضموها بلغاتها الأصلية ، فهم ليسوا إذاً كأولئك الذين يسرفون في الغرورعن جهل وكسل ظانين أن الأدب في متناول كل إنسان ، وأن كل كلام منظوم شعر .الثقافة هي التي تشع في ألفاظ هؤلاء الشعراء وإنك لتقرأ الجملة فتحس أن خلفها ثروة من التفكير والإحساس ؟"

إن معرفة اللغة الأجنبية هي

ميزان الحرارة الذي يسجل درجة استعداد الأديب لاقتباس ثقافة الغرب . إذ لا سبيل إلى اقتباسها إلا من طريق اللغة التي يتكلمها ويكتبها أهلها ومن الطبيعي أن يتبع هذا التفاوت في درجة الاستعداد تفاوت في الثقافة المكتسبة فإن كانت هذه الثقافة مصدر النبوغ في أدباء المهجر. وجب أن تكون درجات أدبهم موازية لدرجات ثقافتهم وهذا لا يؤيده الواقع .إن من ولدت نزعة الأدب في صدره يصبح عبداً لها سواء تثقف أو لم يتثقف . عندما تنتابه حمى الفكرلا تفارقه إلا متى أنتج أدباً . والثقافة تؤمن حذق الصناعة . ولكن الصناعة لا تولد الشعر الرائع الذي يغمر أجهزة الشعور في الإنسان متى سمعه. يقول الشاعرالمهجري:شكر الله الجر :

"إن للشاعر ذاتاً خفية، وشخصية متمردة . وهي الفيض الأقوى في شعره والعامل الأظهر في تفكيره والناحية الأبعد إشراقا في أدبه . فإن استطاعت البيئة أن تكيف قليلاً من هذه الذاتية الحية في الشاعر وتصقل مظهرها فلا يعني أنها تستبدل جوهرها أو تقوى على محوها . عندما يكون الشاعر قوي العاطفة أصيل الطابع "

للبيئة الأميركية فضل على أدبائنا المهاجرين ، هو غيرالثقافة والحرية وما أشبه ذلك هذا الفضل هو عزلهم عن دنيا الاقطاعية الفكرية وعن الأوساط الرجعية . التي كانت تعتقد أن اللغة العربية "لا تنتصر". هذه الأوساط كانت تسيطرعلى مجاري الأدب في مصر وسوريا ، وتحيطها بسياج من حرمة القرآن الشريف حاسبة كل خروج عن التقليد خروجاً عن الدين والفضل الثاني هوالقدرة التي أعطتها البيئة الأميركية لإخواننا المغتربين في صراحة القول وفي المثابرة على العمل وفي الطموح إلى التفوق .لذا نقول أن الموهبة الفطرية ،لا الثقافة ، هي مفتاح السرفي تفوق أدب المهجر .يضاف إليها الجد والاجتهاد والتأمل العميق . وهذا لا يعني أن نبخس الثقافة قيمتها في تكوين الأدب بل نعتبرها من أهم مقوماته ونتمنى لو كل أدباء المهجروجهوا عنايتهم إلى اقتباس ثقافة الغرب وتمكنوا من لغته واطلعوا على آدابه كما فعل الريحاني وجبران ونعيمة ... إذاً لكان أدبهم أعمق وأدسم وأبقى .

ولم أر في عيوب الناس شيئاً

كنقص القادرين على التمام

إن الأدب زهرة ، عطرها الشعر. تنموفي شجرة المعرفة على أغصان العلم والفلسفة والتاريخ وكلما رسخت الجذوع وأينعت الغصون نضرت ألوان الزهرة التي تزدري ماء الحياة الدافق حولها ولا تشرب إلا الندى الهابط من الجو البعيدإن الذين يعترضون على اهتمام أدباء المهجر بالمناسبات يجهلون وضع الجاليات المغتربة وحاجاتها ويتجاهلون أن أدب المهجرما كان مثمراً فعالاً لو لم يلائم ذلك الوضع ويف بتلك الحاجات. كانت الجاليات المغتربة منقسمة على ذاتها في العقائد والنزعات حائرة بين المحافظة على الرواسب القديمة والاستجابة إلى دوافع الحياة التي بدأت تحس بدبيبها في النفوس حساً غائماً . لا ترى إلا الفراغ الأسود في واقع وطنها السياسي الذي انتقل من قبضة الاستبداد التركي إلى ربقة الاستعمار الغربي في شكل حماية وانتداب ، تحت راية الاستقلال .وكان أدباء الجالية يتململون في شبه اختناق تحت ضغط الحوادث في الأقطارالعربية. ولا سيما بعد نكبة فلسطين . في حلوقهم غصة وفي صدورهم لهيب لا ينفس عنهم إلّا الانفجار.فما كان أدب الخيال والفن وحده قادراً على تفريج الأزمة ، بل كان لا بد من أدب قوي واقعي جريء يتجاوب مع شعورالمجتمع ويتفاعل مع ظروف الساعة.

أدب يثير ويحل المشاكل بصدق وشجاعة أدب البعثة .هذه هي التسمية الصحيحة لأدب المناسبات في المهجرأدب البعثة . إن القوافل الأولى التي وصلت إلى المهجر لم يكن أفرادها على شيء من الثقافة أو التهذيب الاجتماعي أو الدراية بالشؤون التجارية . ولم يكن هناك راية تحميهم أومؤسسات تدربهم والصحافة الموبوءة التي نشأت عقب وصولهم كانت تزيدهم تفككاً وضلالاً . فلما وصلت القوافل الأخرى ، وكان فيها بعض المفكرين والمثقفين ، ارتاع هؤلاء من حياة

الذل والمسكنة واللاوعي التي استسلم إليها سابقوهم . ومن تراخي الروابط العنصرية بين أفراد الجالية تراخياً كاد يلاشي الفكرة الوطنية في أذهانهم فعمد المفكرون الواعون إلى الأخذ بوسائل الإيقاظ والإنقاذ.وكانت أولى الوسائل النهوض بالصحافة من درك التدجيل إلى منصة التوجيه والارشاد .ثم أدركوا أن معظم المهاجرين أميون لا يقرؤون الصحف ، فلا بد من الاتصال بهم مباشرة والتحدث إليهم بما يهمهم أمره ، فكانت الاجتماعات الأولية في المنازل ومنها انبثقت وتحققت فكرة تأليف جمعيات وتأسيس الأندية الأدبية الاجتماعية.

أدت الجمعيات والأندية مهمتها الإصلاحية بجمع شتات المهاجرين وحماية مصالحهم ، ثم توخت الحؤول دون ذوبانهم في البيئة الغربية فراحت تقيم الحفلات الشعبية في مناسبة كل حادث سياسي يقع في الوطن ... أو مناسبة كل حادث اجتماعي يقع في الجالية . وتدعو الأدباء إلى إلقاء الخطب والقصائد في موضوع الساعة .ـ وهكذا ولد في المهاجر أدب المناسبات ـ وبهذه المناسبة قال نسيب عريضة قصيدته الشهيرة "النهاية " وميخائيل نعيمة قصيدته الفريدة "أخي "

أخي ،قد تمّ ما لو لم نشأه نحن ما تمّا
وقد عمّ البلاء ولو أردنا نحن ما عمّا
فلا تندب فأذن الغير لا تصغي لشكوانا
بل اتبعني لنحفر خندقاً بالرفش والمعول
نوري فيه موتانا
أخي ، من نحن ؟ لا وطن ولا أهل ولاجار

وخطب جبران فقال :"**إن الدرهم الذي تضعه في اليد الفارغة الممدودة إليك هو الحقلة الذهبية التي تصل ما فيك من البشرية بما فوق البشرية .**"

مآخذ النقاد على الأدب المهجري

لا يسيء إلى الأدباء المهجريين تعارض الأراء في وزن أدبهم وقيمته بل يرون في المعارضة دليل الاهتمام . ونحن نشكر الدكتور ـ صلاح لبكي ـ فيما قدمه عن أدب المهجر في كتابه "لبنان الشاعر ".ففيه زهور فواحة من الثناء نثرها على الأدب المهجري حيث قال عنه أنه :

"شعر تعدى حدود الوجدانية المائية ليتصل بالشعور البشري العام . يميزه كونه مستمداً من صميم الحياة . تؤخذ بروعته ونفتن بسحره . ولا تعرف للافتتان والروعة والسحر سبباً غير ما وقع في نفسك من أثر تلك الروعة وذاك السحر ... أخذناعنه الاتجاه العلمي ومبدأ المساواة بين الرجل والمراة وأهمية العمل الجماعي الواسع " .ولكنه نعى على شعر المهجر عيوب لا بد من ذكرها أو الوقوف عندها منها : جمال المراة ظل غائباً عن شعر المهجر "باستثناء جبران "

كما أنه عني باللفظة التي تتجسد صورة ملموسة ، وأهمل طاقتها الإيحائية التي قام عليها مجد المدرسة الرمزية فيما بعد .كما أن الشاعر المهجري يهمس ويفسر ويوضح . ولكنه لا يوميء ولا يوحي .ويقول أيضا في معرض حديثه عن تلك العيوب أن الشاعر المهجري يضحي بالمبنى للاستبقاء على سلامة المعنى وينحط أحيانا إلى مستوى النثر الرديء .

كما أضاف في بعض أرائه قائلاً أن الشعر المهجري ظل عبد الصورة الجامدة والاستعارات والكنايات البدائية . كما أنه آنس شعراء المهجر ضعفهم في اللغة ويأسهم من إصلاحها فلم يجدوا بداً من أن يتخذوا هذا الضعف مذهباً . هذه الحملة على شعر المهجر تتجه إلى الشكل من خمس جهات وإلى المضمون من جهة واحدة .هي جمال المرأة ظل غائباً عن شعر المهجر . إلا أن المطلع على دواوين شعراء المهجر يجد للمرأة حيزاً ليس بالقليل من شعرهم وقد أخذت بايدي أقلامهم نحو السحر والجمال .

ولولا المرأة لما أبدع الكثير منهم في ظل ظروف الغربة . ولولا المرأة لما أبدع بعضهم بشعر مليء بالألم والحزن والأسى والحب والجمال . "لولا المرأة لما دمعت أقلام الشعراء ولا سهدت أعين العشاق . ولا ترنمت أذان المغتربين عن الأحباء من وطن ،وأهل بقصائد تحكي عذابات المهاجرين . وتراتيل بعودة المغتربين .ولا ننسى أن المرأة نوع من الوطن بل هي لون وشكل من أشكال الوطن . لا نعيش بدونه وإن كان فنحن تائهون نبحث عن النصف الضائع منا ." ولو تتبعنا أشعار كل من جبران وفرحات إيلياأبو ماضي وشفيق المعلوف لوجدنا ما يشبع جوع أنفسنا لأدب فيه توأم روح المرء.

يقول فرحات :

وجمال النساء رب له المجد
وفي كل هيكل معبود
لو خلت جنة الإله من الحور
لما مات فتي الجهاد شهيد

هل الحياة سوى مشاركة بين اثنين؟ تستوقفنا الكلمة الجميلة والنغم الرائع

عند كل وقفة شعورية وتجربة إنسانية فلا بعد شعراء المهجر عن المرأة ولا بعدت عنهم . بل هي في وجداننا ووجدانهم .فقال إيليا أبو ماضي عن الرجل والمرأة :

يحارب الرجل الدنيا فيخضعها
ويفزع الدهر مذعوراً إذا غضبا
يرنو فتضطرب الآساد خائفة
فإن رنت ذات حسن ظل مضطربا
فإن تشأ أودعت أحشاءه بردا
وإن تشأ أودعت أحشاءه لهبا
تغني الليالي في همّ وفي تعب
حذار أن تشتكي من دهرها تعبا
ولو درى أن هذي الشهب تزعجها
أمسى يودع في أفلاكها الشهبا
يشقى لتصبح ذات الحلى ناعمة
ويحمل الهم عنها راضياً طربا
هذا هو المرء يا ذات العفاف فمن
ينصفه لا شك فيه ينصف الأدبا

أبو ماضي يقول في المراة أو الحبيبة إن جاز التعبير. والحيرة التي انتابته عندما أراد أن يقدم لها هدية. في مناسبة جليلة فقد حار ما بين الورد والسوار . ما بين الذهب والعقيق . ما بين كل غال ونفيس بحث في أرجاء المعمورة عن شيء يليق بذات الجلالة فلم يجد سوى روحه . يقدمها رخيصة إلى تلك الروح والدنيا الرحيبة .

أي شيء في العيد أهدي إليك
يا ملاكي وكل شيء لديك
أسواراً أم دملجاً من نضار
لا أحب القيود في معصميك
أم خموراً وليس في الأرض خمر
كالتي تسكبين من ناظريك
أم ورودا والورد أجمل ما فيه
حياء يفيض من وجنتيك
أم عقيقاً كمهجتي يتلظى
والعقيق الثمين في شفتيك
ليس عندي شيء أعز من الروح
وروحي مرهونة في يديك

.يقول المازني : الشعر وحده هو الذي يسجل آيات الجمال وهو وحده يأخذ بمظاهر الابداع من مجالاتها المحدودة إلى رحاب الخلود والشيوع .هو شرط الخلود .

وقديماً قال الأصمعي : أشعر بيت هو الذي لا يحجبه عن القلب شيء .

إذا الشعر لم يهززك عند سماعه
فليس جديراً أن يقال له شعر .

من أقوال سيد قطب :" إن للالفاظ أرواحاً . ووظيفة التعبير الجيد أن يطلق هذه الأرواح في جوها الملائم لطبيعتها فتستطيع الإيحاء الكامل " . وكل من يقرأ شعر المهجر يتأثر بذاك الإيحاء الكامل الهابط من أرواح الألفاظ المتآلفة والتعابير المتناغمة .ما أجمل الشعر المهجري وما أخصبه بصوره الجديدة الحية التي تصف ما يعجز عن وصفه كثير من الشعر. حافل بالاستعارات والرمز الشفيف ، بالعبارات الرقيقة والألفاظ القوية الموحية التي تفتح آفاق التأويل والتجديد فأين عين النقاد من ذلك فمن يقرا أبيات إيليا أبو ماضي لا يجد فيها سوى الجمال والكنايات والروح المتعطشة للحياة الرحيبة .

تعالي نتعاطاها كلون التبرأو أسطع
ونسقي النرجس الواشي بقايا الراح في الكأس
فلا يعرف من نحن ولا يبصر ما نصنع
ولا ينقل عند الفجر نجوانا إلى الناس

قيل لأعرابي : ""ما بال المراثي أجود أشعاركم ؟فأجاب ::"لأننا نقولها وأكبادنا تحترق ".هذه الحرقة كوت قلب نعيمة وغيره من الأدباء المهجريين وقد عبر عنها جبران بقوله :"ما أظلم من يعطيك من جيبه ليأخذ من قلبك ".وقال الدكتور مندور :" أخذنا على شعراء المهجر ما نسميه ضعف اللغة العربية في أسلوبهم وهذه تهمة يجب أن نقلع عنها ؛ لأني كلما أمعنت النظر في ألفاظهم وتراكيبهم لم أجد لها مثيلاً في شعرنا الحديث .من حيث الدقة والقدرة على إثارة الإحساس . إن أخطأوا في الصرف والنحو فهذه أشياء نادرة ، لها نظائرها عند أكبر الكتاب .إنما الذي يعيب الإسلوب هو عدم التجديد والعجز عن الإيحاء . وتلك عيوب لا وجود لها في شعرهم" .بهذا المنطق العلمي يدافع مندور عن الشعر المهجري دفاع المؤمن بقضيته .لا نتعب ولا يعتب المؤمنون بالشعر المهجري حيال هؤلاء المتعنتين بل نقل لهم كما قال جبران :" ماذا أقول في المقعدين الذين يكرهون الراقصين ؟ في الأفعى العتيقة الأيام التي لا تستطيع أن تخلع ثوبها فتعير جميع الحيوانات بالعري وقلة الحياء "؟ولا تعتب يا سيدي على "لبنان الشاعر " إنه شاعر حقاً ولكنه ناقد اً باطلاً ترك الحقل الشائك للمجربين في نزع الأشواك وبقي في الروضة الفيحاء التي وهبها الله لامثاله .....كل إنسان ميسر لما خلق له . وعلى الموهوب أن يحصر عمله في حدود الفن الذي يحذقه والوجه الواحد من وجوه الإبداع الذي يحسنه . فإن جاوزه إلى غيره عجزت موهبته عن العطاء .

رأي الدكتور طه حسين

مما يستوقف النظر ويسترعي الانتباه أن عبارة لبنان الشاعر :"آنس شعراء المهجر ضعفهم في اللغة ويأسهم من إصلاحها فلم يجدوا بدأ من أن يتخذوا هذا الضعف مذهباً " .

وردت بحرفها في كلام الدكتور طه حسين عن إيليا أبو ماضي فكأن "لبنان الشاعر "انتحل الرأي وانتحل أيضاً الكلمات المعبرة عنه ثم تفضل فعممه على جميع شعراء المهجر؛ لأنه . ـ في اعتقاده ـ في مأمن من الشطط . توكأ على ساعد متين على رأي لا يخطىء أبداً في لغة أبو ماضي . ومتى صدق هذا الرأي في أشهر شعراء المهجر ، صدق فيمن دونه شهرة ومنزلة في الشعر .وهذا هو الكلام المنسوب للدكتور طه حسين "لست أزعم أن لغة الشاعر رديئة أو منكرة . ولكنها تقارب الرداءة أحياناً حتى توشك أن توغل فيها إيغالاً . وليكن مصدر ذلك ما يكون ، ولكنه شيء واقع لا نستطيع إلا أن نلاحظه ونسجله آسفين .ذلك أن الشاعر مجيد حقاً . خصب الذهن نافذ البصيرة ، ذكي القلب متقن الفهم لما يريد أن يقول . موفق إلى إجادة التصوير لما يجب أن يصوره .فكان خليقاً أن تؤاتيه مع هذه الخلال نغمة صافية عذبة تعينه على إظهار ما في شعره من قوة وروعة وجمال ليس إلى الشك فيها سبيل . ولعل الشاعر نفسه آنس هذا الضعف في لغته ، ولعله حاول أن يصححه فلم يستطع ،لعله لما استيأس من هذا الإصلاح لم يجد بداً من أن يتخذ هذا الضعف مذهباً" .

أمام هذه الحملة ـ المتأرجحة بين المدح والقدح وبين الافتراض والتمني ـ لا نقول ما قاله الاستاذ حبيب الزحلاوي في كتابه " أدباء معاصرون "لا نقول قوله ولا نقف موقف المحامي الموكل بالدفاع عن إيليا أبو ماضي .فالمتهم في غني عن خدماتنا ، ولوتصدينا للدفاع لخانتنا الجرأة في حضرة عميد الأدب وإمام اللغة .....فلا نناقش ، ولا نعارض في قضية لغوية عدتنا فيها جد هزيلة ، بل نبوح بهمسات لهذا الأستاذ الفاضل تخرج من أعماقنا لنضع أمامه بكل احترام ، علامات الاستفهام .....لا نفهم كيف يكون الشاعر مجيداً وموفقاً في تصوير ما يحب أن يصوره بلغة ضعيفة ؟هل من رسام يجيد التصوير بألوان رديئة ؟كيف تجلت للناقد القوة والروعة والجمال في شعر أبو ماضي تجلياً لا سبيل إلى الشك فيه ، حين لا لغة تعينها على الظهور ؟

كيف يتسنى لشاعر أن ينقل أحاسيس شعب مغترب عن وطنه ويصور مآسي قومه هنا وهناك إن لم تكن لغته قوية سليمة خلدته حتى جيلنا الحاضر نقرأه ونفهمه دون تعثر ؟إن شعر أبو ماضي كما هو يا سيدي هو الشعر الذي نتذوقه ونحبه ولا جدال في الذوق وفي الحب.يقول كروتشه :" على الناقد أن يقف أمام مبدعات الفن موقف المتعبد لا موقف القاضي ولا موقف الناصح "قال نعيمه :" أنا أبحث في كل شعر عن نسمة الحياة فإن عثرت عليها أيقنت أنه شعر ، ومتى أيقنت أخذت أميزه باتساع مداه ، بعمقه ،بعلوه ، بانفراج أرجائه ، وبعد كل ذلك أفحص عن سرواله الخارجي دقة التراكيب . حلاوة الرنة . طلاوة الألوان . وآخر ما أعيره انتباها هو الأوزان والقوانيين العروضية والقواعد اللغوية" .وقال العقاد :" إن شرط الأديب أن يكون صاحب موهبة في نفسه وعقله لا في لسانه فحسب . هو الذي تسال نفسك بعد قراءته ماذا قال لا أن يكون سؤالك كله كيف قال ؟

يقول شكسبير :" تذهب العواصف بأقوى التماثيل ولكن أذهان الناس تحتفظ ببيت من الشعر مكتوب على قاعدته " .يكفي قول أبو ماضي في بيت من الشعر :

إن الكواكب في منازلها
لو شئت لاستنزلتها كلما

المصادر والمراجع

١ ـ أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأمريكية جورج صيدح بيروت ١٩٧٥

٢ ـ ديوان إيليا أبو ماضي د. عبد المجيد الحر دار الفكر العربي بيروت

٣ ـ قصة الأدب المهجري د.محمد عبد المنعم خفاجي

٤ ـ الأدب العربي في المهجر د. حسن جاد حسن دار قطري بن الفجاءة

٥ ـ مجلة العرفان من كتاب المغتربين عبد اللطيف اليونسي عددآذار ١٩٦٤

٦ ـ أدب المهجر عيسى الناعوري الطبعة الثالثة
دار المعارف /مصر

٧ ـ حديث الأربعاء الجزء الثالث طه حسين دارالمعارف /مصر

٨ ـ ديوان القروي

٩ ـ ديوان من السماء أحمد زكي أبو شادي

١٠ ـ ديوان النوافل جورج صيدح

١١ ـ تطور الشعر الحديث و المعاصر د.عمر الدقداق – د. محمد نجيب التلاوي
د.مراد عبد الرحمن مبروك
الناشر - مكتبة الثقافة الدينية

١٢ ـ تاريخ الأدب العربي أحمد حسن الزيات
دار المعرفة بيروت لبنان